مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الاستعارة التصورية ومراجعة الفرضيات الفلسفية واللسانية

أحمد جوهاري
باحث مغربي

2024

- بحث محكم
- قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية
- 2024-11-07

جميع الحقوق محفوظة © 2024

الاستعارة التصورية ومراجعة الفرضيات الفلسفية واللسانية

الملخص

تعالج هذه الورقة كيف تشكل الاستعارة التصورية آلية لتفنيد الفرضيات التي تتبناها التصورات التقليدية في الفلسفة واللسانيات، وكيف أن هذه الأخيرة تتأسس على افتراضات التوجه الموضوعي، في حين تقوم الاستعارة التصورية على افتراضات التوجه التجريبي التفاعلي الذي يتبنى مواقف مغايرة بصدد التصورات الدلالية، من قبيل: اللغة، والصدق، والفهم، والمعنى. ولرصد هذا الاختلاف بدقة، قدم ليكوف تحليلا مفصلا يُبيّن مدى تمايز الطرح الذي تدافع عنه نظريات المعيار المرتكزة على أسطورة النزعة الموضوعية؛ وذلك من خلال الوقوف على الافتراضات التي انطلقت منها والمبررات التي اعتمدتها، واقتضاءاتها على مستوى اللغة، والمعنى والصدق. والهدف الذي نسعى إلى بلوغه هنا، لا ينحصر فقط في تمييز آراء الموقف التجريبي في الاستعارة عن الآراء التي تبناها التقليد الموضوعي، بل بيان مدى تأثيره على الثقافة الغربية منذ عقود، وكيف تجذرت نظريات المعيار حول المعنى في التقليد الموضوعي.

تمهيد

يبدو أن للاستعارة التصورية تأثير قوي في الدراسات الدلالية، ويتجلى هذا التأثير في قدرتها على إبراز حدود نظريات المعنى والصدق التي كانت سائدة في التقليد الغربي. فقد استند ليكوف إلى الاستعارة التصورية كآلية لمراجعة الفرضيات التي انطلقت منها النظريات الدلالية، سواء في الفلسفة أو اللسانيات، كما أن الاستعارة التصورية تشكل وسيلة للتقريب بين الدلاليات الموضوية التي تقر بوجود صدق مطلق وموضوعي، وتسعى إلى ربط المعنى بنظرية المطابقة مع الواقع، والدلاليات الذاتية التي تقر بأسبقية الخيال والتجربة الذاتية في بناء المعاني، والتعبير عن الحقيقة. فقد كشفت نظرية الاستعارة التصورية عن قصور النزعتين معا. وما دامت الاستعارة عند ليكوف آلية للفهم، فقد ذهب ليكوف إلى ربط نظريتي الصدق والمعنى بنظرية الفهم. وهنا أصبح للصدق عند ليكوف مفهوما يختلف عن نظريات الصدق الموضوعي، حيث تم النظر إلى الصدق بناء على الفهم التجريبي بدل التطابق مع الواقع.

يشير ليكوف وجونسون إلى مدى تأثير النزعة الموضوعية في الفكر الغربي منذ ألفي عام، والتي تجسدت عبر التاريخ الغربي في التوجه العقلاني، والتوجه التجريبي (الكلاسيكي)، وكلاهما يسلمان بإمكان بلوغ الصدق المطلق وغير المشروط، بالرغم من الاختلاف القائم بينهما فيما يتعلق بطريقة الوصول إلى الصدق المطلق؛ ففي الوقت الذي يقر فيه التوجه الأول بالقدرات الفطرية كأساس للصدق، يذهب التوجه الثاني إلى اعتماد القدرات الحسية لولوج الصدق المطلق، وبلوغ المعرفة الصحيحة والكلية. وتجدر الإشارة إلى أن النزعة الموضوعية قد تجسدت في عدد من التوجهات الفلسفية، من أهمها الفلسفة التحليلية، كما تجسدت في بعض النظريات اللسانية شأن نظرية النحو التوليدي مع تشومسكي. وبهذا، فالتصور الذي قدمه ليكوف وجونسون للصدق والمعنى يقوم على ما هو استعاري، وهو ما يخالف الدعاوى التي تدافع عنها النزعة الموضوعية. فإذا كانت هذه الأخيرة تنظر إلى الاستعارة كعامل ذاتي وعامل هدام للصدق، فإن ليكوف يقر بأن الاستعارة إحدى الشروط الأساسية للصدق، وآلية للفهم وخلق دلالات جديدة.

يعود سبب اختلاف التصور الذي قدمه ليكوف وجونسون عن باقي التصورات الفلسفية واللسانية السائدة، إلى أن هذه الأخيرة تتأسس على افتراضات التوجه الموضوعي، في حين يقوم تصور ليكوف وجونسون على افتراضات التوجه التجريبي التفاعلي. الأمر الذي دفعهما إلى تبني مواقف مغايرة بصدد التصورات الدلالية، من قبيل: اللغة، والصدق، والفهم، والمعنى. ولرصد هذا الاختلاف بدقة قدم ليكوف وجونسون تحليلا مفصلا يُبيّن مدى تمايز الطرح الذي تدافع عنه نظريات المعيار المرتكزة على أسطورة النزعة الموضوعية، وذلك من خلال الوقوف على الافتراضات التي انطلقت منها والمبررات التي اعتمدتها، واقتضاءاتها على مستوى اللغة، والمعنى والصدق. والهدف الذي يسعى ليكوف وجونسون إلى بلوغه لا ينحصر فقط في تمييز آرائهما عن الآراء التي تبناها التقليد الموضوعي، بل بيان مدى تأثيره على الثقافة الغربية منذ عقود، وكيف تجذرت نظريات المعيار حول المعنى في التقليد الموضوعي. يمكن أن نتناول هذه الورقة من خلال عنصرين أساسيين: يتحدد

العنصر في مراجعة الفرضيات التي ارتكز عليها التصور الدلالي الموضوعي في الفلسفة واللسانيات، لكونها لا تأخذ بعنصر الفهم في تحديد شروط الصدق، وبناء المعاني. ويتمثل العنصر الثاني في الكيفية التي يساهم بها الفهم الاستعاري في تحديد التصورات الدلالية عبر تجاوز الفهم الموضوعي لها. ويتحدد العنصر الرابع في بيان الطريقة التي تشتغل بها الاستعارة التصورية في التقريب بين الدلاليات الموضوعية والدلاليات الذاتية.

1. مراجعة الفرضيات المركزية في الفلسفة

1.1. المعنى موضوعي ومجرد

لقد ترتب عن قبول افتراضات الدلاليات الموضوعية فكرة اعتبار المعنى موضوعي، حيث أصبح من الضروري تأسيس نظرية المعنى وفق شروط الصدق المعمول بها في هذا التوجه، وهي شروط موضوعية. تمكننا من تحديد معنى العبارة بشكل موضوعي انطلاقا من محددات سياقية. ويمكن أن نحدد بذلك، من هو المتكلم، والمستمع، وزمن ومكان التلفظ بالعبارة، وكذا تحديد دلالة الإشارات المتضمنة في العبارة، من قبيل: «هذا»، و«ذاك»...، إلخ. وبهذا، فمعنى العبارة لا يرتبط بالطريقة التي يفهم بها الإنسان التعابير ولا حتى طرائق استخدامها، وهل تمكننا من فهمها أصلا. وبموجب ذلك، يصبح معنى اللفظ مستقل تماما عن المتلفظ به، أو الآخرين المستمعين، فيمكن أن نبرمج آلة تصدر كلاما، من قبيل: «السماء غائمة»، ويكون لها معنى موضوعي يمكن التحقق من صدقه أو كذبه بالرجوع إلى الواقع دونما حاجة إلى الفهم البشري؛ أي باعتماد شروط موضوعية. ونتيجة لذلك، يرتبط فهم معنى التعبير بفهم شروط صدق أو كذب التعبير[1].

بالإضافة إلى ما سبق، يدعي مناصرو التقليد الموضوعي أن الأمر لا يتوقف عند حدود فهم الشروط التي بموجبها تصدق أو تكذب العبارة، بل يسلموا بإمكان بلوغ الصدق المطلق بدون أي مجهود؛ فالأشياء الموجودة أمامنا، من قبيل: «وجود الباب بالمنزل»، أو «الحجر في الأرض»، أو «الماء في الكوب»، هي قضايا صادقة موضوعيا وننفذ إليها بشكل بديهي. ومن ثم، فالصدق الموضوعي يستدعي في نظر هذا التوجه توفر لغة واضحة تطابق المعنى الموضوعي للشيء. الأمر الذي يسمح لمتكلمي اللغة بفهم الجمل، بوصفها تملك معاني موضوعية من خلال قرن كل لفظ بمعنى واحد ووحيد؛ أي إن كل تعبير له معنى حرفي. وبهذا، نجد اختلافا بين تصور ليكوف وجونسون للفهم وتصور الدلاليات الموضوعية، فالفهم عند التوجه الموضوعي هو فهم شروط

1- Lakoff, G, Johnson, M, *Metaphor We Live By*, Chicago, IL: University of Chicago Press. (1980) [Updated version, 2002]. , p. 198

الصدق أو الكذب لا أقل ولا أكثر[2]. وعندما يقرّ ليكوف وجونسون بأن التقليد الموضوعي ينظر إلى المعنى في استقلال عن الفهم، يقصد بذلك الفهم كما يتصوره هو، وليس كما تتصوره النزعة الموضوعية[3].

يسلم ذوو التوجه الموضوعي بافتراض مفاده أن المعنى متجرد ومستقل عن الفرد، وعن كل ما يمكن أن يقوم به من أفعال وتصرفات. في هذا السياق، عمد «فريجه» إلى الفصل بين المعنى الموضوعي الذي يرتبط دائما بالتعابير التي لها إحالة في الواقع الخارجي، وتدل على شيء ما ثابتا، والفكرة التي لها ارتباط مباشر بالذكريات، والانطباعات الشخصية، مما يجعلها ذات طابع ذاتي وفردي. وما يمكن الحديث عنه بصدد الفلسفة والعلوم هو المعنى، وليس الأفكار التي تبقى رهينة شروط ذاتية[4].

من هنا، يقر «فريجه» بأن فهم واستعمال اللغة يتطلب عمليات نفسية يسميها «التمثيل»*، وهي تختلف عن المعنى والإحالة، فتمثل الفكرة عند الفرد ذاتي، بينما المعنى يشترك فيه جميع أفراد المجموعة اللغوية. ولتوضيح ذلك، يسوق فريجه مثالا: هب أننا أمام تلسكوب (منظار) موجه نحو القمر، نستطيع أن نميز في هذا الوضع بين ثلاث عناصر، وهي[5]:

1. القمر الذي يمثل الإحالة أو المرجع؛ لأنه الشيء الواقعي الذي تتوقف عليه الصورة المنعكسة على عدسة التليسكوب، وعلى شبكية الملاحظ.

2. صورة القمر المنعكسة على عدسة المنظار، وهي تمثل المعنى.

3. صورة القمر المنعكسة على شبكية الملاحظ، وهذه تعتبر التمثيل الذهني للشخص.

من هذا المنطلق، فالمعنى عند فريجه موضوعي ومتجرد، وليس نتاج لتفاعل الإنسان مع المحيط، أو نتاج لما هو تصوري، فكل عبارة في اللغة لها معنى مجرد مستقل عن الذات المتكلمة، وهو ما يفسر أن المعنى كامن في الألفاظ. وقد أثر هذا التصور في عدد من الأعمال الدلالية، كما هو الشأن مع «ريتشارد مونتيغيو»، و«دافيد لويس»، و«دونالد دفيدسين» وغيرهم. فجميع هذه الأبحاث تنظر إلى المعنى في استقلال عن الكيفية التي يفهم بها الإنسان لغته وتجاربه. والاعتقاد بوجود معنى مجرد وموضوعي نستشفه من خلال قول مونتيغيو: «اعتبر بناء نظرية للصدق- أو بالأحرى للمفهوم الأعم للصدق في إطار تأويل اعتباطي- الهدف الأساس لتركيب

2- Lakoff, G, Johnson, M, *Metaphor We Live By*, op, cit, p. 199

3 - يختلف موقف ليكوف من الفهم عن باقي المواقف الفلسفية التقليدية، فإذا كان الفهم عند ليكوف محدد انطلاقا مما هو تصوري تتداخل فيه عوامل، كاللغة، والتجربة الجسدية، والتجربة الذهنية، وتفاعل الإنسان مع المحيط الفيزيائي والثقافي، فإن الفهم تبعا للمواقف الفلسفية التقليدية محصور في الشروط الموضوعية التي يحددها الواقع الخارجي.

4- Frege, G, Letter to Russell in from frege to Gödel, A source book *in Mathematical Logic*, Harvard university press, IST, Ed, London, 1967, p. 60

* Représentation

5- Laurier, Daniel, *Introduction a la philosophie du langage*, pierre mardaga, Editeur, 1980, p. 171

ودلالة جديين»[6]. على هذا الأساس، نظر مونتيغيو إلى نظريات المعنى والصدق بوصفهما مشاريع رياضية صرفة، يمكن معالجتهما بشكل متجرد ومستقل عن الكائنات البشرية وغيرها؛ وذلك وفق تأويل اعتباطي بعيدا عن تأثيرات نفسية واجتماعية، مما يجعله مشروعا كونيا وكليا يصلح لجميع الكائنات دون تجاوز الحدود المرتبطة بهذا التأويل[7].

2.1. مطابقة الألفاظ للعالم

لقد تجسدت هذه الأطروحة بشكل أساسي مع أصحاب التوجه الدلالي الماصدقي، حيث اهتموا بدراسة الطريقة التي تطابق بها العبارات اللغوية العالم بشكل مباشر دون تدخل الفهم البشري. ولعل أبرز موقف لهذه الأطروحة هو الموقف الذي قدمه «دافيد ليويس»، حيث ينطلق من فكرة أساسية، وهي عدم مطابقة ما يقترحه كتعريف للصدق للتصورات التي عنيت بتحليل المعنى، والتي ركزت على ما هو نفسي، واجتماعي، وعلى النوايا، والتجربة الحسية، والأفكار الذهنية، والقواعد الاجتماعية والمواضعات. من هنا، ذهب إلى التمييز بين موضوعين أساسيين: الأول يتمثل في وصف اللغات أو الأنحاء الممكنة، بوصفها أنسقة دلالية مجردة يتم ربط الرموز بمظاهر العالم. أما الموضوع الثاني، فيتعلق بوصف الوقائع النفسية والاجتماعية التي يستعمل في إطارها فرد معين أو عشيرة لغوية معينة إحدى هذه الأنساق المجردة، والخلط بين هذين الموضوعين لا يخلق سوى الغموض والالتباس[8].

من هنا، يتضح أن «دافيد لويس» يتبع ممارسة «مونتيغيو» في محاولة تفسير كيفية مطابقة اللغة للعالم، وذلك بطريقة عامة لكي توافق كل الوقائع النفسية والاجتماعية التي تخص استعمال وفهم اللغة عند البشر[9].

3.1. تأسيس نظرية المعنى على نظرية الصدق

إن التسليم بالصدق الموضوعي المستقل عن الفهم البشري يستدعي بناء نظرية للمعنى الموضوعي، وبحسب التقليد الموضوعي لا تأخذ العبارة معناها إلا عندما تكون صادقة بصدد العالم، ولا تكون صادقة إلا إذا طابقت ألفاظها مظاهر العالم الخارجي، وإن لم تطابق العالم فهي كاذبة، وبالتالي ليس لها معنى. لقد عبر «دافيد لويس» عن ذلك بقوله: «إن معنى الجملة هو ما يحدد الشروط التي تكون فيها الجملة صادقة أو كاذبة»[10].

6- Montaigue, Richard, *Formal Philosophy*, University press, New Haven, 1974, p. 188

7- Ibid., p. 199

8- Lewis, D, *philosophical papers*, volume 1, new york, Oxford University press, 1983, p. 189

9- Lakoff ,G, Johnson, M, *Metaphor we live by*, op, cit, p. 201

10- Lewis, D, &, Harman, G, *Semantics of natural language*, Reidel, 1972, p. 173

في هذا الإطار، تم تعميم نظرية الصدق على اللغات الطبيعية من خلال التقنية التي اقترحها ليكوف (في مؤلفه اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي1972م) لتشمل الجمل الإنجازية كما في الأوامر والوعود. وتسمح هذه التقنية بمعالجة الصدق وفق شروط إرضاء في إطار نموذج دلالي معين حتى تطابق الألفاظ العالم، كما حددت شروط نجاح الأفعال اللغوية بصورة مماثلة من خلال شروط إرضاء أو مطابقة العالم، غير أن ليكوف عندما يتحدث عن الصدق والكذب، فهو يتحدث انطلاقا من شروط إرضاء، ويدخل فيها الأفعال اللغوية والإثباتات أو الجمل الخبرية[11].

استند أغلب مناصري التقليد الموضوعي إلى فكرة تقول إن المعنى مستقل عن الكيفية التي يستعمل بها اللفظ في انفصال تام عن العناصر الذاتية التي لها علاقة بالثقافة والفهم، أو بسياق معين، وقد عبر دفيدسين عن هذا الأمر بقوله: «يمكن أن يسند معنى حرفي وشروط صدق إلى الألفاظ والجمل في استقلال عن سياقات استعمال خاصة»[12].

4.1. ارتباط معنى الجملة بمعنى أجزائها

ينطلق التصور الموضوعي من افتراض مفاده أن العالم مكون من أشياء لها خصائص تلازمها، وتعقد بينها علاقات ثابتة بعيدا عن تدخل الذات الإنسانية عبر تجربتها أو فهمها. وما دامت هذه الأشياء محددة في العالم بشكل واضح ودقيق، فإنها تسمح بتسميتها، فاللغة قادرة على وصف هذه الأشياء؛ لأن اللغة تخضع لنفس الصورة التي يوجد عليها العالم (اللغة رسم للواقع). وإذا كانت الأشياء لها خصائص تلازمها، فإن اللغة لها محمولات ذات موضوع واحد يوافق خاصية ما، ووجود العلاقات الثابتة بين الأشياء يقابله في اللغة وجود محمولات ذات موضوعات متعددة توافق هذه العلاقات. على هذا الأساس، يمكن بناء جمل لوصف العالم وحالاته المتعددة، ومن ثم، نحصل على معنى الجمل انطلاقا من شروط صدقها؛ أي الشروط التي تجعلها مطابقة للوضع في العالم. وبذلك يمكن ربط معنى الجملة برمتها بمعنى أجزائها وطريقة تركيبها.

هكذا، نخلص إلى القول إن نظريات المعنى بحسب التقليد الموضوعي هي نظريات تركيبية من حيث طبيعتها؛ أي نظريات المكونات المَبْنية، مادام العالم مكوّن من مكونات مبنية كذلك، من قبيل: أشياء محددة، وخصائص ملازمة، علاقات ثابتة. وإذا توفرت اللغة على مكونات تقابل مكونات العالم، فلا حاجة لنا بالفهم البشري أو عوامل أخرى لتحديد صدق الجمل أو معانيها[13].

11- Lakoff ,G, Johnson, M, *Metaphor we live by*, op, cit, p. 201

12- Davidson, D, What Metaphor Mean, op, cit, p. 33

13- Lakoff, G, and, Johnson, M, *Metaphor We Life By*, op, cit, p. 202

5.1. النسبية الوجودية خارج الفهم البشري

جاءت فكرة النسبية الوجودية كمقابل للكلية الوجودية التي انطلقت مع «كارناب» في سعيه إلى بناء لغة علمية عالمية، وتبعه في ذلك «مونتيغيو» في إقراره بوجود نحو كلي قادر على وصف اللغة الطبيعية باعتماد اللغة الصورية الكلية، وهو ما دفع «كواين» إلى رفض هذه الدعوى مبرهنا على أن لكل لغة وجودها الخاص، والمكونات المرتبطة بها، من قبيل: الخصائص، والعلاقات، هي أمور تختلف من لغة لأخرى. وقد عرف هذا التوجه بـ «النسبية الوجودية»، ومع ذلك، احتفظ به ليكوف وجونسون ضمن النزعة الموضوعية لكونه يغفل دور الفهم البشري والاختلاف الثقافي في تحليله للمعنى والصدق، بالرغم من أنه يستبعد وجود لغة منطقية كلية قادرة على وصف جميع اللغات، ويسلم بقدرة اللغة الطبيعية على وصف جزء من الواقع من خلال انتقائها لوقائع، وخصائص تتوافق معها. وبما أن اللغات توجد على نحو مختلف، فلا شيء يضمن تكافؤ لغتين طبيعيتين، وقد استدل كواين على هذا بعدم تحقيق الترادف في اللغة الطبيعية أو استحالة الترجمة من لغة لأخرى.

بهذا يمكن القول، إن التحليل الذي قدمه كواين للمعنى وشروط الصدق يدخل في إطار «النسبية الموضوعية»، حيث يسلم بالطابع الموضوعي للمعنى، من جهة، ويسلم بنسبية المعنى بالنظر إلى لغة معينة، من جهة أخرى، فالمعنى معطى موضوعيا في لغة ما، وبهذا ينخرط في التقليد الموضوعي ما دام يقر بوجود الصدق الموضوعي، ويقر بوجود أشياء في العالم لها خصائص تلازمها، غير أنه لا تترجم التعابير الصادقة في لغة ما إلى تعابير صادقة في لغة أخرى، بما أن كل لغة تصف العالم بكيفية خاصة، ورغم ذلك تبقى وقائع العالم ثابتة مهما تعددت الأوصاف. على هذا الأساس، فالمعنى والصدق موضوعيان ولا يزال الفهم البشري مستبعدا في رصده لهما[14].

2. مراجعة الفرضيات المركزية في اللسانيات

إذا كانت النزعة الموضوعية تسلم بوجود أشياء في العالم مستقلة عن الإنسان، لها خصائص تلازمها ومرتبطة فيما بينها، فإن الكلمات والجمل حين تكتب نعالجها بسهولة بوصفها أشياء. تلك هي المقدمة المنطقية للسانيات ذات النزعة الموضوعية منذ نشأتها في العصور القديمة إلى الآن: العبارات اللغوية أشياء لها خصائصها في ذاتها ولذاتها، وتعقد علاقات ثابتة فيما بينها، وذلك في استقلال عن أي فرد يتكلمها أو يفهمها، فهي مثل الأشياء لها أجزاء تشكلها[15]. في هذا الإطار، اعتبرت اللسانيات ذات النزعة الموضوعية نفسها المقاربة اللسانية العلمية الوحيدة القادرة على تحليل الأشياء في ذاتها، وفي استقلال عن السياقات وعن الكيفية التي يفهم بها الناس. وكما هو الحال في الفلسفة ذات النزعة الموضوعية، نجد التقليد التجريبي والتقليد العقلاني في اللسانيات، فالتقليد التجريبي تمثله البنيوية الأمريكية التي يتزعمها «بلومفيلد» و«هاريس» اللذان يعتبران أن

14- Ibid., p. 203

15- Lakoff, G, Johnson, M, *Metaphor We Live By*, op, cit, p. 196

النصوص هي الأشياء الوحيدة القابلة للدراسة. أما التقليد العقلاني، فتمثله البنيوية الأوروبية مع «ياكبسون»، وبعض الوجوه الأمريكية أمثال «سابير» و«وورف»، و«تشومسكي»، التي ترى أن العبارات اللغوية أشياء لها واقعية ذهنية، ويمكن أن نتوقف على هذه الفرضيات، كما يلي:

1.2. العبارات اللغوية أشياء

لقد شكل «بلومفيلد» أحد الأقطاب الأساسية للتوجه «التوزيعي»[16]، فقد نظر إلى اللغة بوصفها شيئا ماديا يمكن تقطيعه إلى أطراف متعددة، لذلك لم يكرس اهتماماته إلى دراسة الموجودات المفترضة وراء الأشكال اللغوية، والتي تعد قاعدة تنظمها، بل اعتبر أن كل شيء في الوصف اللساني، يجري على السطح المنطوق، أو المكتوب، وكل محاولة تسعى إلى البحث عن أشياء خلف السطح هي وهم منهجي عقيم. لهذا، يصرّ «التوزيعيون» على استبعاد المعنى استبعادا كليا من التحليل اللغوي، ليس لأنه لا أهمية له، بل لإيمان أصحاب هذه المدرسة، بأن المعنى لا يمكن إخضاعه لنوع الدراسة الوصفية العلمية الدقيقة، التي يمكن أن تخضع لها الأنظمة الظاهرة الأخرى»[17].

لقد صرح بلومفيلد بأهمية الدراسة الدلالية، حين قال: «لكي نقدم تعريفا صحيحا علميا عن معنى كل شكل لغوي، لابد لنا من أن نملك معرفة صحيحة، علميا، عمّا يكون عالم المتكلم؛ إذ التطور الحالي للمعرفة الإنسانية غير كاف لتحقيق هذه الغاية»[18]. وعليه، يقود بلومفيلد البحث اللساني في اتجاه مخالف تقريباً، فقد وضع المعنى جانباً مركزاً بدلاً من ذلك على المبنى. هكذا، فمسألة المعنى عنده مسألة متشابكة تحتاج إلى تضافر جهود معرفية كثيرة لحل إشكالاتها، فجملة، مثل؛ «أنا جائع» يمكن أن يستعملها متسول جائع يستجدي الطعام، ويمكن في الوقت نفسه أن يستعملها طفل عنيد مشاكس يريد أن يتأخر في الذهاب إلى المدرسة عند الصباح أو إلى النوم عند المساء. لقد دافع بلومفيلد في كتابه «اللغة» عن وجهة نظر هذه مؤكداً على اهتمام اللساني بالصفات الصوتية، والنحوية، والمعجمية، المتجلية في النطق الإنساني عامة[19]. فهو لا يريد للساني أن يشرح كيف يمكن أن يكون لجملة واحدة وظائف سياقية مختلفة، ولا كيف يمكن للمستمع أن يفك رموز الخطاب لمعرفة دلالته[20].

16- ظهر هذا التوجه بداية الخمسينيات من القرن الماضي كرد فعل ضد اللسانيات التقليدية التي تقتصر في دراستها للغة على ما هو معياري. وقد تطور هذا التوجه على يد «زيليج هاريس» في سعيه إلى وصف اللغة بالاستناد إلى مبدأ التوزيع الذي يقوم على التراكيب اللغوية ولا ينشغل بالمعاني. انظر: حساني، أحمد، **مباحث في اللسانيات**، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 1994، ص، 103

17- Bloomfield, L, *language*. New York, Holt, Renihart, 1933, p. 98

18- Ibid., p. 99

19- إن التصور السلوكي للغة عند بلومفيلد، يعود إلى الترسيمة المشهورة: «مثير/استجابة»، ذلك أن «بلومفيلد» يدرس السلوك الإنساني كمجموعة من المثيرات والاستجابات، ليشرح على ضوئها الظواهر اللغوية، فالمثير هو حدث واقعي يمكن أن يتوسط من خلال الخطاب، فهو إذن يعوض حركة شفوية «الكلام»؛ أي الاستجابة التي نتجت عن الموجات الصوتية التي أنتجها المتكلم عبر الهواء.

20- Bloomfield, L, *language, op, cit,* p. 123

2.2. اللغة واقع ذهني

تبعا لنظرية «سابير» و«ورف»، تعكس كل لغة تصورا مُحددا للعالم، وهو تصور خاص بها، ففي نظرهما تنظِّم لغة أيّ مجتمع كان ثقافته الخاصة به، أي أنها تنظم كيف يقوم أفراده بإدراك الواقع وكيف يتصوّرون العالم. وبالتالي، ويقران بأن الفروق الحاصلة بين لغتين تؤدي إلى نوعين مختلفين من البنيات التصورية والانفعالية على حدٍّ سواء. بين لغتَيْن معيَّنتَيْن هنالك إذن، عالمان مختلفان، وليس عالماً واحداً تتمّ تسميته بمجموعتين مختلفتين من الكلمات والتعابير[21].

إن نظام اللغة يتكون من مقولات ترتبط فيما بينها ضمن شبكات متعددة المستويات والعلاقات. وتستقي هذه المقولات قيمتها الفعلية من الفوارق، والتقابلات، والاختلافات فيما بينها، وهي بذلك تقوم، بفعل سمتها الاعتباطية، بوضع الرابط بين العالم المادي المحيط بنا والعالم الذهني الذي بداخلنا، كما أنها تقوم بتنظيم فكرنا وبَنْيَنته، وببناء تصورنا للعالم. إن اللغة إذن، هي البنية التحتية للفكر[22].

في هذا الإطار، ميّز «سابير» بين نظام اللغة الفيزيائي (الكلام) ونظامها المثالي، ويعد هذا الأخير المبدأ الحقيقي، والأكثر أهمية في حياة اللغة ذاتها. وهذا التمييز لا يختلف عن التمييز الذي أقره «دي سوسير» بين اللغة والكلام ذي الطابع الفردي. وعليه، يحتوي النظام اللغوي في مستواه الصوتي على العناصر، والعلاقات ووظائفها، وأن هذه العناصر هي التي تكّون اللغات وتميز بينها، فكل لغة ذات نظام مثالي، تحلل الواقع وتفرض هذا المنهج على الأشخاص الذين يتكلمون بها قصد تحقيق تواصلهم الاجتماعي، وبذلك تكون قد أسست فكرهم. ومن ثم، يرى «سابير» أن اللغة وسيلة لتكوين الفكر، فالأشخاص الذين ينطقون بألسن مختلفة، فإنهم يرون العالم بكيفيات متباينة، ولذلك، فإن «سابير» يصر على ضرورة عدم فصل اللغة عن الثقافة[23].

3.2. استقلالية النحو عن المعنى والفهم

لقد سبق التأكيد أن دراسة اللغة دراسة علمية بحسب التقليد الموضوعي يقتضي النظر إليها كأشياء لها خصائص تلازمها، وعلاقات ثابتة بين عناصرها، والاختلاف بين اللغات يتحدد انطلاقا من وجود عدد من العلاقات تختلف باختلاف اللغات. وبهذه الطريقة ندرس النحو في استقلال عن الطريقة التي يفهم بها

21- Dubois, Jean, et All, *Dictionnaire de Linguistique et des Sciences du langage*, Paris, Larousse, 1999, sous « Whorf-Sapir (hypothèse de) », p. 511

22- أشار، بيار، **سوسيولوجيا اللغة**، ترجمة، عبد الوهاب ترو، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص، 109

23- خصص ليكوف فصلا بكامله في كتابه «النساء، النار، والأشياء الخطيرة 1987م» يتحدث فيه عن فرضية سابير وورف، واعتبرها نظرية مثيرة للاهتمام مقارنة بالحتمية اللغوية. لقد دافع وورف عن نظرية كونية موضحا بعض العناصر الدلالية التي تظهر في كل لغة، مما يعني أن وورف لا يتعارض مع فرضية الكونية. غير أنه اعتقد عن خطأ أن هناك لغات ليست لها استعارات، وقد أصاب في الكثير من القضايا الأخرى، من قبيل: وجود اختلاف في الأنساق التصورية يمكنه أن يعكس الاختلافات الموجودة بين اللغات الطبيعية. انظر:

- Roberta, Pires de Olveira Florianoplis, Entrevista, Cognitive semantics: In the heart language an Interview with George Lakoff, *Forum Linguistico*, op, cit, p. 98

البشر، مادامت اللغة أشياء يمكن دراستها في استقلال عن المعنى. ومن الأعمال التي تبنت هذا الطرح نجد تشومسكي، كأهم الباحثين الذين دافعوا عن صورية النحو في استقلال تام عن المعنى وعن الفهم البشري، مبرزا أنه كلما استدعت الضرورة إعمال الفهم في الظواهر اللغوية، فإننا نكون بصدد دراسة خارجة عن النحو. في هذا السياق، ميّز تشومسكي بين القدرة التي تتمثل في المعرفة الباطنية للغة، والإنجاز الذي يتعلق باستعمال الناطق لهذه المعرفة، كمحاولة لتحديد الموضوعات التي تدخل في اهتمام اللسانيات العلمية أو اللسانيات العقلانية – الصورية، ويدخل في هذا الباب كل القضايا الصورية الخالصة، ويستبعد كل ما يرتبط بالفهم البشري والاستعمال اللغوي، بالرغم من ارتباط اللسانيات بعلم النفس، فإن هذا اللسانيات مستقلة عنه ولا علاقة له بالفهم[24]. هكذا، ففهم الجملة الجديدة لا يتوقف، كما يقول على التشابه الملحوظ بين الجمل التي تعلمها الطفل، بل على إسناد خصائص نحوية عميقة للجملة التي استضمرها من قبل[25].

إن المعرفة اللسانية الفطرية تساعد الطفل على تعلم لغة ما؛ إذ تشتمل على كليات لسانية التي تكتشفها على المستوى الصوتي، والتركيبي، والدلالي. وتنقسم هذه الكليات إلى[26]:

- الكليات الجوهرية: التي تعتبر بمثابة مقولات نحوية مجردة.
- الكليات الصورية: التي تقر باحتواء كل الأنحاء على قواعد ذات خصائص صورية موحدة.

ينطلق الطفل من كليات ليصوغ عددا غير محدود من فرضيات تهم الكيفيات التي تركب، وتنطق، وتؤول بها الجمل، ليحتفظ بعد ذلك بالفرضيات الموافقة للوقائع اللسانية فقط، حينئذ نقر بامتلاكه للغة.

4.2. الدلاليات الموضوعية في نظريات التواصل

انتقل تأثير النزعة الموضوعية في الفلسفة واللسانيات إلى مجال التواصل من خلال التعامل مع العبارات اللغوية كأشياء لها وجود مستقل عن المتكلم أو المستعمل للغة، وأصبح ينظر إلى التواصل كنقل لعبارات لغوية لها معاني في ذاتها إلى السامع. وهذا يعني أنه بإمكان نقل المعنى المتضمن في التعابير بشكل موضوعي، وإذا وقع خلل ما في التواصل أو في عدم إيصال المعنى بشكل واضح يفسّر بوجود أخطاء ذاتية. ومن ثم، فالمعنى ينقل بشكل الموضوعي الكلمات، والأخطاء التي يمكن أن تحصل لنا ناتجة عن عدم استعمال الكلمات المناسبة في قولنا لما نعنيه، أو إننا فهمنا خطأ[27].

24- Lakoff, G, and Johnson, M, *Metaphor We Life By*, op, cit, p. 205

25- الباهي، حسان، **اللغة والمنطق، بحث في المفارقات**، مرجع سابق، ص، 53

26- المرجع نفسه، ص، 53

27- Lakoff, G, and Johnson, M, *Metaphor We Life By*, op, cit, p. 206

فقد لاحظ ليكوف في هذا الإطار أن معظم الحالات التي يتم فيها نقل المعلومة من متكلم إلى مستمع لا يمكنها أن تطابق بين أفكارنا وطرق نقلنا لها. لذا وجب التميز بين لحظة إنتاج وبناء أفكارنا، ولحظة عقدها[28]. إذا كان «شانون»[29] يرجع الإخفاقات التي تحصل في التواصل إلى سوء الفهم أو إلى خلل في القناة، يرجع ليكوف وجونسون الخلل إلى عوامل أخرى، منها؛ اختلاف تأويل الألفاظ بين الناقل الذي يقوم بعقد الخبر والمنقول إليه الذي يسعى إلى حله. وعليه، ظهرت مجموعة من الأبحاث تقر بأن مفهوم التواصل لا ينبني على مجرد الإبلاغ والإعلام، والنقل، والإرسال. ومن ثم، فالقول بوجود تطابق بين معنى الرسالة ودلالتها لا يتحقق إلا في حالات معينة.

تعترف نظريات التواصل ذات النزعة الموضوعية بأن الفرد قد يفهم جملة ما، في سياق معطى بوصفها تعني شيئا أخر غير معناها الحرفي، وهذا المعنى الآخر هو ما اصطلح عليه عادة باسم «معنى المتكلم»، وبالتالي يقر هذا التوجه بأن أي رصد تام للفهم يفترض معالجة هذه الحالات أيضا[30].

3. التصور الدلالي بين الفهم الموضوعي والفهم الاستعاري

سبق الحديث عن مسألة ارتباط المعنى -عند التوجه الموضوعي- بفهم الشروط التي تكون بموجبها الجملة صادقة أو كاذبة، غير أن هذا الارتباط بين المعنى والفهم لا يتوقف عند هذه الحدود، بل يتجاوز ذلك إلى كل حالات الفهم عند الفرد، خصوصا عندما يكون للمعنى غير موضوعي وغير حرفي سياق محدد. وقد سمي هذا المعنى عند منظري الأفعال اللغوية «بمعنى المتكلم»، أو معنى المتلفظ، كما تمت الإشارة إليه في المحور الأول. وكل تناول تام للفهم ينبغي أن يراعي حالات الفهم هاته[31].

فمن بين الحالات التي يكون فيها الفهم مرتبط بسياق خاص نجد؛ حالة التهكم، والسخرية، والاستعارة، وغيرها. في هذه الحالات ينبغي التمييز بين المعنى الموضوعي الحرفي ومعنى المتكلم، والمثال الذي يأخذه ليكوف وجونسون يرد كالآتي: عندما نتلفظ بالجملة «إنه عبقري حقا»، فهي تشير على سبيل التهكم إلى

28- الباهي، حسان، ، **الحوار ومنهجية التفكير النقدي**، مرجع سابق، ص، 158

29- قدم كلود شانون Claude Elwood Shannon وهو مهندس أمريكي كان يعمل في ميدان الاتصالات الهاتفية خطاطة تواصلية جديدة تختصر من خلال خاناتها ونمط اشتغال العملية التواصلية برمتها. ولقد كانت الغاية من هذه الخطاطة تحسين مردودية الاتصالات الهاتفية التي تتم عن بعد بجميع أشكالها من خلال التقليص من حجم الضياع الذي يشوش على الإرسالية ويتلف الكم المعلوماتي الذي تتضمنه الإرسالية المبثوثة. وهو ضياع لا علاقة له «بسوء الفهم» المرتبط بالقدرات الإدراكية لدى الإنسان، أو نتيجة تأويل خاطئ يقوم به متلق مفترض، بل هو ناتج عن القصور التقني وعدم ملاءمة الآلات الموجودة لمتطلبات الاتصال. أنظر: بنكراد، سعيد، استراتيجيات التواصل: من اللفظ إلى الإيماءة، **مجلة علامات**، العدد 21، 2004، ص، 8

30- يميز ليكوف بين النماذج ذات النزعة الموضوعية والفلسفة ذات النزعة الموضوعية. يقبل ليكوف النزعة الأولى ويرفض الثانية لكونها تعطينا أساسا غير كاف للعلوم الإنسانية. لكن هناك مجموعة من الباحثين المرموقين في الرياضيات، واللسانيات، وعلم النفس، والحاسوبيات، الذين صمموا نماذج ذات نزعة موضوعية يتم استعمالها في العلوم الإنسانية. وهنا يقر بضرورة الفصل بين النماذج الموضوعية والفلسفة الموضوعية، تنطلق الأولى من فكرة وجود كيانات رياضية، بينما تعتمد الثانية على كيانات واقعية موضوعية في العالم. انظر:

- Lakoff, G, and Johnson, M, *Metaphor We Life By*, op, cit, pp: 218-219

31- Ibid., p. 207

معنى محدد، وهو «إنه غبي جدّا»، وهو معنى المتكلم، وإلى معنى موضوعي «له قدرات فكرية كبيرة»، والحال أنهما معنيين متعارضين لنفس الجملة. ويمكن تفسير هذا التعارض من قبل التوجه الموضوعي بأن الفرد يستطيع التعرف على معنى المتكلم باستخدام مبادئ التأويل العامة (التي أشرنا إليها في المحور الأول) التي تسمح له بفهم ما يقصده المتكلم، عندما يتلفظ بالقول: «إنه عبقري حقا»، ولها المعنى الموضوعي «م» له قدرات فكرية كبيرة، ويريد كذلك أن ينقل للسامع المعنى الموضوعي «م›» هو «أنه غبي جدا»، شريطة أن يتعرف المتكلم والمستمع على قصدهما معا[32]. لقد استخدم التوجه الموضوعي هذه التقنية المستلهمة من منظري الأفعال اللغوية في اشتغالهم على الطريقة التي يقوم بها المعنى خارج معنى الجملة الموضوعي؛ أي خارج شروط صدقها أو كذبها الموضوعيين. وقد استدعى ذلك اعتماد معنيين موضوعيين، وهما «م» و «م›»، والعلاقة بينهما من حيث هي علاقة موضوعية تحدد معنى المتكلم ومعنى السامع؛ وذلك عن طريق تعّرف كليهما على قصد بعضهما البعض، غير أن هذا الأمر شكل مصدر خلاف بين ذوي التوجه الموضوعي، فقد ذهب بعضهم إلى أن القصد غير كافي في الحكم على الجمل بالصدق أو الكذب[33].

هكذا، سلم التوجه الموضوعي بإمكانية معالجة حالات المعنى عند الفرد باعتماد هذه التقنية، وخصوصا الحالات التي يقول فيها المتكلم شيئا ويعني به شيئا آخر، كما في المبالغة، والتلميح، والسخرية، وكل ما كان مجازا في اللغة، كحال الاستعارة، غير أن ليكوف وجونسون يقران بأن تحقيق هذا البرنامج يقتضي صياغة مبادئ عامة تسمح لنا بالتنبؤ بمعنى المتكلم في سياق معطى متى كانت لدينا جملة ما ومعناها الحرفي «م»، ولدينا كذلك المعرفة الواردة في السياق. ولاختبار هذا الأمر توقف ليكوف وجونسون عند حالة الاستعارة، فالقول إن «هذه النظرية مصنوعة من الآجر الرخيص»، لها معنى موضوعي بحسب التوجه الموضوعي وهو كاذب، لأن النظريات لا تصنع من مواد البناء، ولها معنى يقصده المتكلم وقد يكون صادقا وهو هذه النظرية ضعيفة»، غير أن المشكل الذي يطرح على هذا الموقف هو ضرورة إعطاء مبادئ تأويل عامة ينتقل المتكلم بموجبها من الجملة «هذه النظرية مصنوعة من الآجر الرخيص» إلى معنى المتكلم المقصود «م›» هذه النظرية ضعيفة» عن طريق المعنى الموضوعي «م» «هذه النظرية مصنوعة من مواد بناء رخيصة»[34].

يتعامل التوجه الموضوعي مع حالات الجمل الاستعارية كما لو كانت معاني غير مباشرة يمكن التوصل إليها عبر المعنى الموضوعي الحرفي؛ وذلك من خلال رصد التشابهات بين المعنى الموضوعي الحرفي والمعنى غير الحرفي، مما يستوجب فهم الجمل الاستعارية بصورة غير مباشرة. على هذا الأساس، فنظرية الفهم لدى

32- Ibid., p. 207

33- يعود الاختلاف حول القصد ودوره في بلوغ الصدق إلى النقاش الدائر بين بول غرايس وجون سيرل. ففي الوقت الذي يقر فيه غرايس أن القصد يلعب دورا أساسيا في تحديد المعنى من حيث هو جوهر العملية التخاطبية، نجد سيرل يميز بين نوعين من القصدية: القصدية الأصلية، مثل قولنا: أحس بالجوع، والقصدية المشتقة، كأن نقول؛ أنا جائع»، والقصدية الاستعارية التي لا تنطوي حرفيا على القصدية، كقولنا: سيارتي جائعة. أنظر: الباهي، حسان، **الذكاء الصناعي، وتحديات مجتمع المعرفة**، مرجع سابق، ص، 211

34- Lakoff, G, Johnson, M, *Metaphor We Live By*, op, cit, p. 208

التوجه الموضوعي قائمة على تصوره للصدق الموضوعي، وبهذا الخصوص تم التمييز بين الفهم المباشر والفهم غير المباشر؛ الأول يقابله المعنى الحرفي الموضوعي للجملة، والثاني يقابله معنى المتكلم، أو المعنى غير المباشر[35].

يترتب عن هذا التحليل مجموعة من النتائج تتعلق بالكيفية التي تتناول بها النزعة الموضوعية مسألة الاستعارة، نجملها في ما يلي[36]:

1. يرفض التوجه الموضوعي التسليم بوجود تصورات استعارية أو معان استعارية؛ فالمعاني دائما موضوعية توافق شروط الصدق الموضوعي. إنها طريقة لتحديد العالم كما هو، كما أن شروط الصدق الكلاسيكية لا تسمح لنا بتصور شيء من خلال شيء آخر. لذلك، لا يمكن أن تكون المعاني استعارية.

2. الاستعارة بحسب هذا التوجه ليست مسألة تخص المعنى، بل تخص اللفظ، وما يمكن القيام به عن طريقها شيء واحد فقط، وهو الحديث بشكل غير مباشر عن المعنى الموضوعي «م›» باستخدامنا للغة التي تعبر دائما عن معنى موضوعي آخر «م»، وهو معنى كاذب دائما وبشكل صارخ.

3. ينفي التوجه الموضوعي وجود ما دعاه ليكوف وجونسون الاستعارة الوضعية؛ فاللغة الحرفية لا يمكن أن تكون استعارية، وهناك حالة واحدة فقط توجد فيها الاستعارة تكون فيها م› = م.

4. إن مساهمة الاستعارة في الفهم لا تتعدى مستوى إدراك مشابهات موضوعية؛ أي مشابهات بين معنيين موضوعيين «م›» و «م» شريطة أن تحافظ هذه المشابهات على خصائص تلازم الأشياء.

هكذا يتبين لنا أن تصور المعنى عند ذوي النزعة الموضوعية، يتعارض مع ما اقترحه ليكوف وجونسون في كتابهما: «الاستعارات التي نحيا بها» 1980م.

4. الاستعارة التصورية والتقريب بين الدلاليات الموضوعية والدلاليات الذاتية

إن تصور ليكوف وجونسون للدلالة بناء على الاستعارة التصورية قادهما إلى مراجعة منطلقات النزعة الموضوعية، من جهة، وفرضيات النزعة الذاتية، من جهة أخرى، مُبينا مقوماتهما، وحدودهما، مع صياغة نظرية للدلالة تقوم على فرضيات تجريبية تأخذ بعين الاعتبار بعض عناصر من الموضوعية، وعناصر أخرى من الذاتية يتم دمجها فيما اعتبره ليكوف وجونسون «الخيار التجريبي» متوسلا بالاستعارة التصورية من أجل قيام نظرية تجريبية للدلالة بناء على الفهم.

35- Ibid., p. 209

36- Ibid.; p. 209

1.4. الاستعارة وتجاوز أسطورتي الموضوعية والذاتية

اعتمد ليكوف وجونسون على براهين لغوية تجريبية من أجل تقويض أركان التوجه الموضوعي الذي سيطر على الفكر الغربي منذ زمن طويل، من خلال فرض أسطورة[37] تقول إن العالم مكوّن من أشياء مستقلة عن الذات، ولها خصائص تلازمها، وتعقد علاقات ثابتة بين هذه الأشياء في كل مرحلة زمنية[38]. ويمكن إدراك العالم الخارجي عبر المقولات والتصورات التي تقدم حقيقة موضوعية ومطلقة، كما ينظر هذا التوجه إلى الكلمات باعتبارها تحمل معاني ثابتة في الزمان والمكان. ومن ثم، يمكن التسليم بوجود نظرية موضوعية للمعنى[39].

تُبين هذه الفرضيات أن التوجه الموضوعي عاجز عن تفسير الطريقة التي يفهم بها الناس تجربتهم، وتفكيرهم، ولغتهم. والسبب في ذلك، راجع في نظر ليكوف وجونسون إلى أن إدراك الأشياء يجب أن يبقى معزولا، وليس في ارتباطها بتفاعلاتنا مع العالم، وبالإسقاطات التي نمارسها عليه. بالإضافة إلى عدم إدراك الخصائص بوصفها تفاعلية، بل لأنها ملازمة للأشياء. وسبب آخر يعود إلى عدم إدراك المقولات من حيث هي تجارب كلية أو جشطالتات تجريبية تحدد تبعا لطراز-أولي*معين، بل بالعكس تدرك بوصفها ثابتة، وهو ما يستدعي تحليل المشاكل المتعلقة بالمعنى في اللغة الطبيعية، وكذا المتصلة بالكيفية التي نفهم بها تجاربنا ولغتنا تحليلا تجريبيا، وليس تحليلا قبليا يعتمد فرضيات فلسفية. من هذا المنطلق، اقترح ليكوف وجونسون الاستعارة كآلية برهانية للاستدلال على بطلان الطرح الموضوعي بصدد المعنى، والصدق والفهم.

سبق أن حدد ليكوف وجونسون كيف يخفق التوجه الموضوعي في تفسير الطريقة التي يفهم بها الناس لغتهم وتجربتهم، وأشار إلى أن المقابل الوحيد للموضوعية في الفكر الغربي يتمثل في التوجه الذاتي الجذري، والذي ينتمي غالبا إلى التقليد الرومانسي خصوصا التقليد الفينومينولوجي، والوجودي السائد في أروبا، وبيّن أن التوجه الذاتي ليس الخيار الوحيد المقابل للموضوعية، بل هناك خيار ثالث، وهو «خيار تجريبي»، يتيح لنا إمكانية تقديم تفسير مرضي لفهم اللغة والتجربة البشريان. من هنا، فإذا كان التوجه الموضوعي غير كاف لتفسير اللغة والتجربة، فإن التوجه الذاتي هو الآخر يفشل في ذلك. وقد أوضح ليكوف وجونسون بعض مظاهر عدم كفاية التوجه الذاتي انطلاقا من بعض المواقف التي يتبناها هذا الأخير، ومن أهما[40]:

37- نشير هنا إلى أننا نستخدم المفردات «أسطورة، والنزعة، والتوجه»، بنفس المعنى. فقد استخدم ليكوف لفظ الأسطورة ليس بمعناه المألوف الدال على الخرافة، بل للدلالة على أهمية وقيمة الموضوعية كنزعة فلسفية سيطرت على التقليد الغربي ما ينيف عن ألفي عام، لدرجة أصبحت من الحقائق التي لا تقبل المساءلة والنقد، وهو ما جعلها «أسطورة» تقابلها أسطورة الذاتية التي شكلت قاعدة فكرية لدى الرومانسيين، والشعراء، وما بعد الحداثيين الفلاسفة، مثل؛ أدرونو، وهوركهايمر، وغيرهما.

38- Lakoff, G, and Johnson, M, *Metaphor We Life By*, op, cit, pp: 186-187

39- الباهي، حسان، **الحوار ومنهجية التفكير النقدي**، مرجع سابق، ص، 80

* Prototype

40- Lakoff, G, Johnson, M, *Metaphor We Live By*, op, cit, p. 223

- يرى هذا التقليد أن المعنى خاص بالفرد؛ أي إن كل ما هو دال وله أهمية يرتبط بالفرد وأحاسيسه وتجربته الخاصة ولا يشترك فيه مع غيره، ومن ثم لا يمكن نقله إلى الآخرين.

- يرى هذا التوجه أن التجربة البشرية شاملة وليست لها أبعاد طبيعية، ولا يمكن أن نفرض بنية طبيعية على تجربة الآخرين، وإن كان الأمر كذلك، فإنها تبقى مصطنعة وغير حقيقية.

- ليس للمعاني بنية طبيعية، فالمعنى يرتبط عند الفرد بحدسه، وقيمه، وتجاربه.

- السياق ليس مُبَنْينا طبيعيا.

- لا يمكن تمثيل المعنى بشكل طبيعي وكاف.

كل هذه المظاهر تفسر مسألة أساسية، وهي أنه لا توجد بنية طبيعية داخلية للتجربة، وليست هناك قيود طبيعية على اللغة، والفهم، والصدق والمعنى. في حين ينطلق ليكوف وجونسون من خلال التفسير الذي قُدم بصدد أسس النسق التصوري من افتراض مفاده أن التجربة مُبنْينة بشكل طبيعي، غير أنهما لا ينكران بذلك كون المعنى يرتكز أحيانا على ما هو دال عند الفرد وما يرتبط بتجربته الخاصة، الأمر الذي يصعب معه نقل المعنى إلى فرد آخر. لكنهما يؤكدان بالمقابل على أهمية الاستعارة في تحديد وسيلة للنقل الجزئي لتجارب الفرد الخاصة، وذلك بواسطة البنية الطبيعية لتجربته[41].

2.4. الدلاليات التجريبية ودعوى بطلان التفرقة بين الموضوعية والذاتية

لا ينكر ليكوف وجونسون الوظائف المهمة التي تقومان بها الموضوعية والذاتية في رسم أسس التجربة الثقافية، وبناء المعنى. وهو ما يفسر وجود تقاطعات بين الموضوعية والتجريبية، من جهة، والذاتية والتجريبية، من جهة أخرى. ويمكن الوقوف عند بعض القواسم المشتركة بين الموضوعية والتجريبية، والمتمثلة أساسا في الاعتراف بوجود أشياء واقعية[42] مستقلة عن الفرد، وبإمكانها أن تقيّد علاقة الإنسان بمحيطه، وتفرض شروطا على الكيفية التي يدرك بها الإنسان محيطه. بالإضافة إلى الدور الذي تقوم به المعرفة والصدق في تحديد طبيعة السلوك من أجل التعامل مع الواقع، وتحقيق مستوى عال من الدقة والتجرد في الحالة التي يكون ذلك ضروريا دون الخروج عن ما هو معقول. وقد لا يتفق ليكوف وجونسون مع التوجه الموضوعي في إقراره بوجود صدق مطلق وكلي، من جهة، ووجود معرفة تسمح لنا بأن نتصرف بنجاح، وفي نفس الوقت نعبر عن الدقة والتجرد، من جهة أخرى. فهذا الأمر غير مقبول في نظرهما؛ لأن الصدق دائما نسبي في ارتباطه بالفهم

41- Lakoff, G, Johnson, M, *Metaphor We Live By*, op, cit, p. 225

42- سيتم نقل هذا المفهوم عند ليكوف من دلالته الميتافيزيقية الموضوعية إلى دلالته العلمية المتجسّدة مع نهاية تسعينيات القرن الماضي.

المؤسس بدوره على نسق تصوري غير كلي دون أن يمس ذلك بالاهتمامات المرتبطة بالمعرفة والتجرد التي تحفز النزعة الموضوعية[43].

إن الموضوعية التي يتبناها ليكوف وجونسون ليست موضوعية مطلقة، بل موضوعية نسبية[44]؛ أي إنها موضوعية بالنظر إلى نسقنا التصوري، والقيم الثقافية السائدة، ومتى تعارض نسقين تصورين ما تصبح معه الموضوعية مستحيلة. في نفس السياق، يقر ليكوف وجونسون بإمكانية بلوغ الموضوعية في المعرفة العلمية، غير أنه فكرة التخلي عن دعوى الصدق المطلق سيزيد من معقولية المعرفة العلمية، حيث نكتشف جوانب مظلمة من المعرفة تجعل من مسألة بلوغ الصدق المطلق أمرا غير ممكنا، بالرغم من التأثير السلبي على الجماعات العلمية وقيمتها[45].

بالإضافة إلى ما سبق، هناك عناصر مشتركة تبرر انشغالات النزعتين: التجريبية والذاتية، فكلاهما يعترفان بأن الفهم يتطلب ضرورة ارتباط المعنى بالفرد ولا دلالة خارج اهتمامات الفرد. كما أن الدلالة عند الفرد لا تقوم على المعرفة العقلية وحدها، بل على التجارب السابقة للفرد وقيمه، وأحاسيسه. من ثم، ضرورة الإقرار بتغير المعنى من فرد لآخر مادام يرتبط بالخيال، ويساهم المعنى الذي يتمثله الفرد في بناء الانسجام عنده. وبهذا، يكون التوجه الموضوعي قد أضاع ما هو أساسي وهادف ومنسجم عند الفرد، بتركيزه على الصدق المطلق. وعليه، فالتجريبية تأخذ بعين الاعتبار كل هذه العناصر في رصدها للفهم، والمعنى، ويظهر ذلك من خلال تركيزها على التفاعل بين الفرد ومحيطه، وتركيزها على الخصائص التفاعلية، بدل الخصائص الملازمة. وهو ما يفسر كيف يكون المعنى دائما معنى بالنسبة للفرد[46]. في نفس الوقت، تركز التجريبية على بناء الانسجام عبر الجشطالتات التجريبية، والذي يفسر بدوره كيف يكون الشيء مهمًّا لكي يكون دالا عند الفرد. وبشكل عام تعمد التجريبية إلى تفسير الطريقة التي يستعمل بها الفهم موارد الخيال انطلاقا من الاستعارات، وتعالج إمكانية خلقها لحقائق جديدة، وكيف تعطي لتجاربنا معنى جديدا[47]، غير أن التجريبية ترفض مسألة خلو الفهم الخيالي من أي قيد أو شرط، لتصبح بذلك التجريبية -في نظر ليكوف وجونسون- قادرة على الإجابة عن الاهتمامات الحقيقية والمعقولة التي تأسست عليها كلا النزعتين؛ الموضوعية والذاتية دون السقوط في هاجس الصدق المطلق الذي خيم على الموضوعية، أو اللجوء إلى الخيال اللامشروط الذي سيطر على التوجه الذاتي.

43- Ibid., p. 226

44- ينبغي التمييز هنا بين النسبية الموضوعية التي يتبناها كواين باعتبارها نسبية لغوية أساسا، والموضوعية النسبية التي يدافع عنها ليكوف من حيث هي نسبية تصورية، تتأسس الأولى على اختلاف اللغات الطبيعية، مما يجعل إمكانية ترجمة لغة ما إلى أخرى أمرا عسيرا، في حين تقوم الثانية على اختلاف الأنساق التصورية يستحيل معها التسليم بوجود صدق مطلق.

45- Lakoff, G, Johnson, M, *Metaphor We Live By*, op, cit, p. 227

46 -Ibid., p. 227

47- Ibid., p. 228

خاتمة

يتضح مما سبق، أن الاستعارة التصورية لها تأثير قوي في التصورات الدلالية: الصدق والمعنى، واللغة، لكونها تقدم منطلقات جديدة للتفكير في الدلالة تختلف عن فرضيات التصور الموضوعي الذي يستبعد الفهم البشري والاستعارة في بناء الدلالات وتحديد شروط الصدق. ويتبنى فكرة تقول إن المعنى موضوعي ومتجرد ينتج عن التطابق الحاصل بين الألفاظ والعالم، والواقع أن المعنى نتاج لتفاعل الإنسان مع المحيط، ونتاج لما هو تصوري استعاري، ولا يتمتع المعنى بواقعية موضوعية أو واقعية ذهنية، بل حاصل تجربة الإنسان، وفهمه، وتفاعله مع محيطه الفيزيائي والثقافي. وعلى خلاف التوجهين: الموضوعي والذاتي، يتبنى ليكوف وجونسون موضوعية نسبية، وهي موضوعية بالنظر إلى نسقنا التصوري. على هذا الأساس، أصبح من الضروري تأسيس نظرية المعنى والصدق على نظرية الفهم نظرا لما يلعبه الفهم، سواء كان استعاريا أو غير استعاري، كما يوفر وسائل تمكننا من تحديد الصدق، من قبيل؛ الإسقاط، والمقْولة، الأمر الذي دفع ليكوف وجونسون إلى معالجة نظرية الصدق انطلاقا مما هو استعاري وتصوري. وهنا يميز بين الفهم المباشر الذي نستخدمه في بيان الكيفية التي تكون الجمل البسيطة صادقة، والفهم غير المباشر الذي نعتمده في حالة صدق الجمل الاستعارية. وقد كان الهدف من تأسيس نظرية الصدق على الاستعارة إبراز الخصاص التجريبية للدلالة تتجاوز المحددات الموضوعية، وبهذا يكون ليكوف وجونسون قد انتصرا لفكرة ربط الصدق بالفهم والاستعارة دون أن يتخلى عن ما هو أساسي في التصور الموضوعي والتصور الذاتي. من هنا، اعتبرت مقاربتهما للدلالة مقاربة تجريبية-ذهنية تفاعلية.

قائمة المصادر والمراجع:

بالعربية

- أشار، بيار، سوسيولوجيا اللغة، ترجمة، عبد الوهاب ترو، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1996
- الباهي، حسان، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2004
- الباهي، حسان، الذكاء الصناعي وتحديات مجتمع المعرفة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2012
- الباهي، حسان، اللغة والمنطق، بحث في المفارقات، منشورات دار الأمان، ط2، الرباط، 2015
- بنكراد، سعيد، استراتيجيات التواصل: من اللفظ إلى الإيماءة، مجلة علامات، العدد 21، 2004
- حساني، أحمد، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، 1994

باللغات الأجنبية

- Bloomfield, L, language. New York, Holt, Renihart,1933
- Davidson, D, What Metaphor Mean, in Sheldon sacks (Ed), on metaphor, Chicago and London, the University of Chicago press, 1978
- Dubois, Jean, et All, Dictionnaire de Linguistique et des Sciences du langage, Paris, Larousse, 1999, sous « Whorf-Sapir (hypothèse de) ».
- Frege, G, Letter to Russell in from Frege to Gödel, A source book in Mathematical Logic, Harvard university press, IST, Ed, London, 1967
- Lakoff, Johnson, M. Metaphors we live by. Chicago, IL: University of Chicago Press. (1980) [Update version, 2002].
- Laurier, Daniel, Introduction à la philosophie du langage, pierre Mardaga, Editeur, 1980
- Lewis, D, &, Harman, G, Semantics of natural language, Reidel, 1972
- Lewis, D, philosophical papers, volume 1, new york, Oxford University press, 1983
- Montaigne, Richard, Formal Philosophy, University press, New Haven, 1974
- Roberta, Pires de Olveira Florianopolis, Entrevista, Cognitive semantics: In the heart language an interview with George Lakoff, Forum Linguistico, fpolis, n°, 1, pp: (83- 119). 1998

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث